اَلْمَزْمُورُ الْحَادِي عَشَرَ

لإِمَامِ الْمُغَنِّينَ. لِدَاوُدَ

1 عَلَى الرَّبِّ تَوَكَّلْتُ. كَيْفَ تَقُولُونَ لِنَفْسِي: «اهْرُبُوا إِلَى جِبَالِكُمْ كَعُصْفُورٍ»؟ 2لأَنَّهُ هُوَذَا الأَشْرَارُ يَمْدُّونَ
الْقَوْسَ. فَوَّقُوا السَّهْمَ فِي الْوَتَرِ لِيَرْمُوا فِي الدُّجَى مُسْتَقِيمِي الْقُلُوبِ. 3إِذَا انْقَلَبَتِ الأَعْمِدَةُ، فَالصِّدِّيقُ مَاذَا يَفْعَلُ؟
4اَلرَّبُّ فِي هَيْكَلِ قُدْسِهِ. الرَّبُّ فِي السَّمَاءِ كُرْسِيُّهُ. عَيْنَاهُ تَنْظُرَانِ. أَجْفَانُهُ تَمْتَحِنُ بَنِي آدَمَ. 5الرَّبُّ يَمْتَحِنُ
الصِّدِّيقَ، أَمَّا الشِّرِّيرُ وَمُحِبُّ الظُّلْمِ فَتُبْغِضُهُ نَفْسُهُ. 6يُمْطِرُ عَلَى الأَشْرَارِ فِخَاخاً نَاراً وَكِبْرِيتاً وَرِيحَ السَّمُومِ
نَصِيبَ كَأْسِهِمْ. 7لأَنَّ الرَّبَّ عَادِلٌ وَيُحِبُّ الْعَدْلَ. الْمُسْتَقِيمُ يُبْصِرُ وَجْهَهُ.

إذا انقلبت الأعمدة!

الأغلب أن داود كتب هذا المزمور أثناء محاولات شاول المتعددة ليقتله، مرة برمحه وأخرى بحربته، ثم بتدبير المكائد العديدة للإيقاع به. فنصح الأصدقاء داود أن يهرب إلى المنطقة الجبلية من أرض يهوذا لينجو من الشر الذي يهدده لو بقي حيث كان. لكن داود رفض النصيحة، ولو أنها منطقية ومخلصة، وقال: «على الرب توكلت». كان يرى له خدمة في وسط شعبه، فهو مسيح الرب الممسوح لأداء خدمة خاصة، فلم يشأ أن ينجي نفسه على حساب قضيته. إنه صاحب رسالة لا يشاء أن يدافع عن نفسه ويهمل الدفاع عن رسالته، فرفض فكرة أصدقائه وقال: «كيف تقولون لنفسي: اهربوا إلى جبالكم كعصفور؟» (آية 1). وختم المزمور بقوله: «المستقيم يبصر وجهه» (آية 7) في الأرض والسماء، في الحياة الحاضرة والآتية.

وقد وقف نحميا موقفاً مشابهاً لموقف داود هذا بعد عودته من أرض السبي، وبدأ يبني أسوار أورشليم، فثار الأعداء ضده وأخذوا يسخرون منه، ولكنه صلى: «الآن يا إلهي شدّد يديَّ» (نح 6: 9). ونصح شمعيا نحميا أن يدخل الهيكل ويغلق أبوابه لأن الأعداء قادمون ليلاً ليقتلوه، فرفض نحميا وقال: «أَرَجُلٌ مثلي يهرب؟ ومَن مثلي يدخل الهيكل فيحيا؟ لا أدخل!» (نح 6: 11) لأنه كان يعلم أن أعداءه سيدخلون الهيكل ويقتلونه، لو أن الرب أسلمه إلى يدهم. فكيف يحمي سلامته على حساب سلامة رسالته؟ لو أنه فعل فسيُهلك نفسه ويعطل رسالته.

ووقف المسيح نفس الموقف، فقد نصحوه أن يترك مكانه الخطِر إلى مكان أكثر أمناً وقالوا له: «اخرُج واذهب من ههنا، لأن هيرودس يريد أن يقتلك». فأجاب: «امضوا وقولوا لهذا الثعلب: ها أنا أُخرِج شياطين وأشفي اليوم وغداً، وفي اليوم الثالث أُكمَّل. بل ينبغي أن أسير اليوم وغداً وما يليه، لأنه لا يمكن أن يَهلك نبيٌّ خارجاً عن أورشليم» (لو 13: 31–33).

كانت كلمات أصدقاء داود منطقية من وجهة النظر البشرية. غير أن داود رأى بُعداً أعمق مما رآه أصدقاؤه: رأى من لا يُرى. رأى الله من وراء كل هذه المواقف الصعبة، فنبّه أصدقاءه إلى أن الله موجود يحمي أولاده. كان داود متأكداً أن العصفور الصغير ليس وحيداً بلا سند، وكان يسمع الله يقول له: «لأنك قلتَ: أنت يا رب ملجإي، جعلتَ العليَّ مسكنك، لا يلاقيك شر» (مز 91: 9، 10).

يكشف هذا المزمور لنا البطولة الإيمانية وسط جوٍّ من الحيرة الأخلاقية والنصائح البشرية، ويرينا المؤمن الثابت في أداء واجبات دعوته الإلهية، والذي لا يعاند الرؤية السماوية. وصدق الشاعر العربي: «إذا كانت النفوس كباراً، تعبت في مرادها الأجسام».

في هذا المزمور نجد:

أولاً – تحذيرات للبطل (آيات 1–3)

ثانياً – ثبوت البطل (آيات 4–6)

ثالثاً – البطل يبصر وجه الله (آية 7)

أولاً ـ تحذيرات للبطل
(آيات 1-3)

في الآية الأولى نصح الأصحاب داود أن ينفض يده من قضيته بحُجَّة أن النصر مستحيل عليه، وأن الخطر مُحدقٌ به. واقترحوا عليه أن يتوارى عن أرض النضال وأن يضع سلامته قبل مصلحة قضيته، وقالوا له: «اهربوا إلى جبالكم كعصفور» فليس للعصفور الصغير قدرة على مواجهة الصقور، ولا نبال الصياد، فلا ملجأ له إلا الفرار. وبرروا نصيحتهم هذه بسببين:

1 ـ الأشرار على وشك أن يقتلوه: «هوذا الأشرار يمدّون القوس. فوَّقوا السهم في الوتر ليرموا في الدُّجى مستقيمي القلوب» (آية 2). شدّوا القوس، وفي الظلام سدّدوا سهمهم على الوتر ليرموا داود المستقيم القلب. آلات هجومهم جاهزة، وقد احتلّوا مواقعهم ليقتلوه. إنهم يعلمون أن قلبه مستقيم، ولكنهم يريدون أن يرموه بسهمهم في الظلام لأنهم لا يملكون شجاعة المواجهة. والكلمة العبرية المترجمة هنا «دُجى» يمكن أن تُترجم «في القلب». فهم يريدون أن يرموه في قلبه بسهم ليتأكدوا من هلاكه. لذلك ينصحه أصحابه بالفرار إلى جبال أرض سبط يهوذا. غير أن داود كان يحمل ترس الإيمان الذي به يقدر أن يطفئ جميع سهام الشرير الملتهبة (أف 6: 16).

2 ـ العدالة غائبة عن البلد: «إذا انقلبت الأعمدة، فالصديق ماذا يفعل؟» (آية 3). حذّر الأصحاب داود من نجاح مكائد الأشرار، لأن أعمدة العدالة في مملكة الملك شاول انقلبت، حتى أنه يريد أن يقتل داود. لم تعد هناك عدالة ولا حق، وكبار الرجال (الأعمدة) الذين كان يمكن أن يعتمد داود عليهم للوقوف في وجه الشر ولحمايته غير موجودين، فلم يبقَ للبار أمان. حتى الأبرار لم يعودوا يساندون قضيتهم. فالنصيحة هي: «لا أمل. توقف عن عمل البر، واهرب». غير أن داود كان قد وجد إجابة السؤال: ماذا يفعل الصدِّيق؟ لأنه كان يضع ثقته في عدالة السماء التي لا تنهزم، فقرر أن يتحدى الأخطار. لقد واجه جليات الجبار بعصا ومقلاع وخمسة حجارة مُلس (1صم 17: 40) وانتصر. فما الذي يمنع تكرار الانتصار بفضل الرب العظيم؟ هذا ما يجب أن يفعله الصدِّيق.

في مرات كثيرة يقدّم لنا أصدقاؤنا نصائح من قلبٍ مخلص، ولكن بفكرٍ مخطئ. ينصحوننا أن نهجر طريق الطاعة لأنه ضيق وعر، وأن نسير في الطريق الواسع السهل الذي يبدو أنه يتّجه بنا إلى أعلى. عندما أعلن المسيح أن ابن الإنسان ينبغي أن يتألم كثيراً ويُرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويُقتل، وبعد ثلاثة أيام يقوم، أخذه بطرس إليه وابتدأ ينتهره ويقول: لا نريدك أن تموت. لماذا تذهب إلى أورشليم ليقتلوك؟ لماذا تعرّض حياتك للخطر؟.. وفي كلام بطرس منطق، لكنه عكس ما جاء المسيح ليقوم به. فانتهر المسيح بطرس وقال له: «اذهب عني يا شيطان لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (مر 8: 33). بالمنطق الإنساني كان بطرس مُحقّاً في حبه وغيرته، لكن هذه الغيرة كانت جسدانية، لم يدرك معها بطرس البُعد الروحي لمجيء المسيح إلى أرضنا.

كثيراً ما نسمع نصيحة مثل نصيحة بطرس للمسيح، ونصيحة أصدقاء داود: «اهرب كعصفور». وهي نصيحة تركز على الخطر، وعدم فائدة المقاومة، وحماقة التضحية بالذات في سبيل قضية يائسة، ولكنها تنسى المشيئة الإلهية والمسؤولية القيادية. فليحفظنا الله منها ويوقظنا لنوعيَّة تلك النصائح.

ثانياً ـ ثبوت البطل

(آيات 4-6)

سمع داود نصيحة أصحابه: «اهرب كعصفور». لكنه كان واقفاً على صخر فقال: «على الرب توكلت». ثم بدأ يوجّه أنظار أصدقائه إلى أن الذين معه أكثر من الذين عليه (2مل 6: 16). وأن الذي فيهم أعظم من الذي في العالم (1يو 4: 4). وهي حقائق لا بد تغيّر حكمهم.

1 ـ أعلن لهم حضور الرب: «الرب في هيكل قدسه» (آية 4أ). إنه حي حاضر وسط المؤمنين في هيكله المقدس، يسمع صلاتهم ويقبل عبادتهم ويرفعهم فوق ظروفهم القاسية. إنه يرسل لك عوناً من قدسه (مز 20: 2).

أمر الله كليمه موسى أن ينصب خيمة الاجتماع (مكان العبادة) وسط معسكر أسباط بني إسرائيل، وقال: «لأسكن في وسطهم» (خر 25: 8). ورأى يوحنا سبع منائر ذهبية ترمز للكنائس السبع، والمسيح في وسطها (رؤ 1: 13). وقال المسيح: «حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم» (مت 18: 20). فكيف يقولون لداود: اهرب إلى جبالك كعصفور، بينما الرب في هيكل قدسه؟

يعلّمنا العهد الجديد أن كل مؤمن هو هيكل للرب، والرب هو مركز حياة المؤمن، وحوله يجتمع المؤمنون. ولم يكن هناك وقت ترك الرب فيه جماعته، ولا هيكل قدسه.

2 ـ أعلن لهم عظمة الرب: «الرب في السماء كرسيُّه» (آية 4ب). الله موجود هنا معي، وموجود في السماء. هو صاحب كل سلطان في السماء وعلى الأرض. إنه الأعلى فوق كل قوة أرضية وشيطانية. هو صاحب العرش.

3 ـ أعلن لهم معرفة الرب: «عيناه تنظران. أجفانه تمتحن بني آدم» (آية 4ج) فهو يرانا ويعرف كل شيء عنا «لأن عيني الرب تجولان في كل الأرض ليتشدد مع الذين قلوبهم كاملة نحوه» (2أخ 16: 9). هو الذي لا ينعس ولا ينام (مز 121: 4).. لكن لماذا يقول «أجفانه؟» ألم يكن كافياً أن يقول «عيناه تنظران»؟ وللرد نقول: عندما يريد إنسان أن يتأمل منظراً، فإنه يحدق البصر فيه، وكأنه يشدّ جفنيه ليرى كل الصورة بوضوحٍ وتدقيق. إذاً عينا الرب

تنظران، لكن أجفانه أيضاً تؤكد أنه يرى الموقف كله. عيناه كلهيب نار تخترقان أستار الظلام، تراقبان الصالح والطالح، لتنصف صاحب القضية، ولتنتصر الحق.

4 - أعلن لهم برّ الرب: «الرب يمتحن الصدّيق، أما الشرير ومحبّ الظلم فتبغضه نفسه. يمطر على الأشرار فخاخاً. ناراً وكبريتاً وريح السَّموم نصيب كأسهم» (آيتا 5، 6). يمتحن الله الصدّيق البار ويعلن نجاحه ويقبله، أما الشرير فيمتحنه ويرفضه. لقد امتحن أهل سدوم وعمورة فلم يجد عشرة أشخاص صالحين، فأمطر عليهما كبريتاً وناراً من السماء (تك 19: 24). وامتحن خليله إبراهيم، فطلب منه أن يقدم ولده وحيده محرقة، فأطاع. وأجاز الله خليله بمرتبة الشرف وقال له: «أباركك مباركةً.. ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض، من أجل أنك سمعت لقولي» (تك 22: 15-18).. «الرب يمتحن الصدّيق» فإن الصعوبات امتحان إلهي، يكشف عمق حياة المؤمن الروحية، فيُخرج مثل النور برّه وحقّه مثل الظهيرة (مز 37: 6). كما قال أيوب: «إذا جرّبني أخرج كالذهب» (أي 23: 10). أما إبليس فيمتحن الصدّيق ليضيِّع إيمانه ويصيبه باليأس. ولا يسمح الله بامتحان الصدّيق إلا بعد أن يدرّبه ويقوّي عضلاته الروحية. ولا يقدر الأشرار أن يمدّوا أيديهم إليه إلا بمقدار ما يسمح الرب لهم بذلك. «أما الشرير ومحبُّ الظلم فتبغضه نفسه» ويوقفه عند حدّه، حتى لا يتمادى في إيذاء المؤمن، كما فعل مع هامان الشرير، فصلبوه على الخشبة التي أعدَّها لمُردخاي (أس 7: 10) فصارت «ريح السَّموم» نصيب هامان، وهي ريح عاصفة خانقة تهبُّ في صحراء شبه الجزيرة العربية تؤذي وتدمِّر. قد يتوقَّف رجل الدين عن عمل الصلاح، وقد يتخلّى الحاكم عن إقامة العدل. ولكن يبقى الله الحاكم العادل الذي يقول عنه المرنم: «على الرب توكلت».

ثالثاً - البطل يبصر وجه الله

(آية 7)

«لأن الرب عادل ويحب العدل. المستقيم يبصر وجهه» (آية 7). وثق داود في عدل الرب الذي سيدافع عنه، ولن يتركه فريسة لأعدائه، بل لا بد أن يقاومهم ويهاجم شرورهم، ويبيد الظالمين، فيبقى فقط المستقيمون الصديقون الأبرار في محضر الله.

قال المسيح: «طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله» (مت 5: 8). وهي رؤيا روحية يتمتع بها صاحب القلب الذي نفض عنه ظلام الخطية والعصيان، فأشرق الرب عليه بنور وجهه (مز 4: 6) فيقول: «أما أنا فبالبرّ أنظر وجهك. أشبع إذا استيقظت بشبَهك» (مز 17: 15). وقد تساءل المرنم: «يا رب، من ينزل في مسكنك؟ من يسكن في جبل قدسك؟» وأجاب على السؤال الذي أثاره بقوله: «السالك بالكمال، والعامل الحق، والمتكلم بالصِّدق في قلبه» (مز 15: 1، 2).. هذا المستقيم وأمثاله يقولون عند مجيء المسيح ثانية: «نعلم أنه (المسيح) إذا أُظهر نكون مثله، لأننا سنراه كما هو» (1يو 3: 2). وفي الآخِرة يتحقَّق معهم القول: «وهم سينظرون وجهه، واسمه على جباههم» (رؤ 22: 4). إن الله يُسرُّ بالمستقيمين، وقد تصوَّر المسيح فيهم (غل 4: 19). **وأختم تأملات هذا المزمور بفكرتين:**

1 - على المستقيمين أن يتوقعوا المقاومة: لأن أفكارهم ونوعية حياتهم وسلوكهم تختلف مع الأشرار المحيطين بهم. وهذه المقاومة لا تدفعهم للخوف أو اليأس أو الهروب، بل تشجعهم على مقاومة الشر بالخير.

2 - على المستقيمين أن يكونوا نسوراً لا عصافير: نصح الأصدقاء داود أن يهرب كعصفور، لكنه قرر أن يكون نسراً يحلّق ويرتفع فوق الغيوم ليرى شمس البر في إشراقها، ويبصر وجه إلهه ويتمتع بمحضره، فتنتهي المقاومة المؤقَّتة بإشراق النصر الدائم.

دعونا في حبٍ للرب نُخضِع نفوسنا، فنعمل مشيئته، ليحقق قصده فينا فنبصر وجهه. ولنبقَ مجاهدين في سبيل قضية ملكوته مهما كانت الصعوبات، مقاومين إبليس راسخين في الإيمان (1بط 5: 9).

الْمَزْمُورُ الثَّانِي عَشَرَ

لإِمَامِ الْمُغَنِّينَ عَلَى «الْقَرَارِ». مَزْمُورٌ لِدَاوُدَ

1خَلِّصْ يَا رَبُّ لأَنَّهُ قَدِ انْقَرَضَ التَّقِيُّ، لأَنَّهُ قَدِ انْقَطَعَ الأُمَنَاءُ مِنْ بَنِي الْبَشَرِ. 2يَتَكَلَّمُونَ بِالْكَذِبِ كُلُّ وَاحِدٍ مَعَ صَاحِبِهِ، بِشِفَاهٍ مَلَقَةٍ بِقَلْبٍ فَقَلْبٍ يَتَكَلَّمُونَ. 3يَقْطَعُ الرَّبُّ جَمِيعَ الشِّفَاهِ الْمَلَقَةِ وَاللِّسَانَ الْمُتَكَلِّمَ بِالْعَظَائِمِ، 4الَّذِينَ قَالُوا: «بِأَلْسِنَتِنَا نَتَجَبَّرُ. شِفَاهُنَا مَعَنَا. مَنْ هُوَ سَيِّدٌ عَلَيْنَا؟».

5«مِنِ اغْتِصَابِ الْمَسَاكِينِ، مِنْ صَرْخَةِ الْبَائِسِينَ، الآنَ أَقُومُ يَقُولُ الرَّبُّ. «أَجْعَلُ فِي وُسْعٍ الَّذِي يُنْفُثُ فِيهِ».

6كَلاَمُ الرَّبِّ كَلاَمٌ نَقِيٌّ كَفِضَّةٍ مُصَفَّاةٍ فِي بُوطَةٍ فِي الأَرْضِ مَمْحُوصَةٍ سَبْعَ مَرَّاتٍ. 7أَنْتَ يَا رَبُّ تَحْفَظُهُمْ. تَحْرُسُهُمْ مِنْ هَذَا الْجِيلِ إِلَى الدَّهْرِ. 8الأَشْرَارُ يَتَمَشُّونَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ عِنْدَ ارْتِفَاعِ الأَرْذَالِ بَيْنَ النَّاسِ.

هل انقرض التقي؟

كتب داود هذا المزمور في وقت شعر فيه أنه وحيد في تعبّده لله، فقال: «قد انقرض التقي. قد انقطع الأمناء من بني البشر». وقد شاركه النبي إيليا المشاعر نفسها عندما قال: «غِرتُ غيرةً للرب إله الجنود، لأن بني إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف. فبقيت أنا وحدي، وهم يطلبون نفسي ليأخذوها» (1مل 19: 10).

كانت البلاد في ذلك الوقت قد امتلأت بالفساد الخُلقي، فأخذ داود يهاجم نفاق عصره. كان داود ملك البلاد، وكان يمكن أن يفتخر بالتقدم الحضاري في مملكته، فقد كان عصره عصراً ذهبياً في الآداب والفنون. وكانت المملكة متقدمة في الشعر والموسيقى، بدليل هذه المزامير التي كُتب معظمها أثناء حكمه، وكانت جوقة ترنيم الهيكل بقيادة «إمام المغنين» تستخدم مختلف الآلات الموسيقية، فتُطرب العابدين وتُلهمهم. وشهدت البلاد نهضة معمارية، فقد بنى داود قصره من خشب الأرز، وجهّز الكثير من مواد البناء ليعاون ابنه سليمان في بناء هيكل أورشليم. وكانت التجارة ناجحة ومربحة بين مملكة داود والممالك المجاورة. وكان التسليح جيداً ومتقدماً بعد فترة الضعف العسكري أيام حكم القضاة وحكم الملك شاول.

رأى داود مملكة أُقيمت فيها القصور، وجرت العربات في شوارعها، وكثر الذهب في أيدي مواطنيها. ولكن هذا كله لم يجعله ينسى نقطة الضعف الخطيرة، وهي أن البلاد كانت تعاني من نقص أخلاقي خطير، فقد انقرض التقي، وانقطع الأمناء من بني البشر.

لما ذهب الرسول بولس إلى أثينا كنا نتوقع أن تُلفت نظره مباحثات الفلاسفة، والشعر والفنون والمتاحف والقصور. ولكن مؤرخ سفر الأعمال سجّل لنا ما حظي بالاهتمام الأول عند بولس، فقال: «بينما بولس ينتظرهما (سيلا وتيموثاوس) في أثينا احتدّت روحه فيه إذ رأى المدينة مملوءة أصناماً. فكان يكلم في المجمع اليهود المتعبدين، والذين يصادفونه في السوق كل يوم» (أع 17: 16، 17).

صحيحٌ أن «البر يرفع شأن الأمة، وعار الشعوب الخطية» (أم 14: 34).

قلنا إن عصر داود كان متقدماً. ولكل تقدم اقتصادي ثلاث مراحل متتابعة:

1 - في المرحلة الأولى تنجح الدولة اقتصادياً، ويجد المواطن حاجاته المادية بسهولة، وتنتشر المعارف والتقنية بسبب كثرة السفر والتجارة، ويتلاقى الفكر الإنساني ويتبادل المنفعة.

2 - في المرحلة الثانية يحدث ازدهار، وتولد فنون ومخترعات جديدة تجعل حياة الناس أكثر راحة، ويظهر أنهم يصبحون أكثر سعادة.

3 - في المرحلة الثالثة تصل مجموعة قليلة من الناس إلى الغِنى الفاحش بينما تكون الأغلبية في فقر شديد، فترى ظالمين كثيرين ومظلومين أكثر، فيتذمّر أهل الطبقات السفلى، وتُمتَهن المبادئ. وهنا يبدأ التدمير الاقتصادي بسبب الدمار الأخلاقي، ويعود المجتمع يفتش عن نجاحه المادي من جديد.

ويبدو أن داود رأى شعبه يبلغ المرحلة الثالثة، فكتب هذا المزمور يوبخ شرور عصره وزمانه.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – صلاة (آيات 1–4)

ثانياً – استجابة (آيات 5–8)

أولاً ـ صلاة

(آيات 1-4)

وفي صلاة داود، التي تستغرق نصف مزموره، يطلب العون الإلهي (آيتا 1، 2) ثم يطلب معاقبة الأشرار (آيتا 3، 4).

1 - يطلب الإنقاذ الإلهي: «خلِّص يا رب». ويذكر أمرين يطلب الخلاص منهما:

(أ) نقص الأمانة: «قد انقرض التقي.. الأمناء من بني البشر» (آية 1). وهذا أمر يدفعنا للصلاة لأن غياب التقوى وانقراض الأمانة يضر الصالح كما يضر الشرير. «فأطلب أول كل شيء أن تُقام طلبات وصلوات.. لأجل الملوك.. لكي نقضي حياة مطمئنة هادئة في كل تقوى ووقار» (1تي 2: 1، 2).

(ب) انتشار الكذب: «يتكلمون بالكذب كل واحد مع صاحبه. بشفاه ملِقة، بقلبٍ فقلب يتكلمون (أي أنهم منافقون)» (آية 2). «بقلب فقلب» تعبير عبري معناه أن لكل واحدٍ منهم قلبين، يواجهون الشخص الواقف أمامهم بقلب، وما أن يتركوه حتى يكون لهم نحوه قلب آخر. إنهم مخادعون، يقولون كلامين متناقضين! يتظاهرون بما لا يبطنون. هناك القاسي الذي «بلا قلب» ولكن صاحب القلبين أخطر لأنه يعطيك من طرف اللسان حلاوة ثم يطعنك. إنه مثل يهوذا الإسخريوطي الذي خان سيده!

2 - يطلب معاقبة الأشرار: «يقطع الرب جميع الشفاه الملقة، واللسان المتكلم بالعظائم. الذين قالوا: بألسنتنا نتجبَّر. شفاهنا معنا. من هو سيد علينا؟» (آيتا 3، 4). يطلب أن يقطع الرب أعضاء الكلام فيهم. وطلب معاقبة الأشرار قد يكون إعلاناً نبوياً بنهاية أولئك الكذبة المنافقين، أو أنه طلب من الله أن يبيدهم عملاً بالمبدأ الذي آمن به المرنم، وهو «العين

بالعين» (خر 21: 24). لقد حسب هؤلاء الأشرار أن نجاحهم جاء نتيجة ذكائهم ومجهودهم ونفوذهم، فقالوا: «بألسنتنا نتجبَّر. شفاهنا معنا. من هو سيد علينا؟» يعني أن مصائر غيرنا تتوقف على كلمة نقولها. «شفاهنا معنا» فندافع عن تصرفاتنا لنبرهن صلاحها، فنكسب قضايانا بالتزوير، ونتحايل على القانون ونفسره لمصلحتنا ونتلاعب به، ولا سيّد علينا سوى أنفسنا.

لقد نسوا أن الله هو خالق أجسادهم، وأنه المالك الحقيقي لها. وقد ننسى اليوم أننا لسنا مِلك أنفسنا لأن المسيح اشترانا. فلنسمع القول: «قد اشتُريتُم بثمن. فمجِّدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله» (1كو 6: 20).

ثانياً ـ استجابة

(آيات 5-8)

لكل صلاة استجابة. لقد طلب المرنم العون من الله، وطلب مجازاة الأشرار، فاستجاب الرب سامع الصلاة، ولا بد أن ينصف مختاريه الصارخين إليه نهاراً وليلاً (لو 18: 7) لأنه القاضي العادل. وعدالته فيها الرحمة للمظلوم، ووجهها الآخر عقاب للظالم.

وفي الاستجابة نجد أمرين: وعداً بالعون (آيتا 5، 6) وتحقيقاً للوعد (آيتا 7، 8).

1 ـ وعدٌ بالعون: ويقدم المرنم وعدين لله، وعد فوري مباشر من الله (آية 5) ووعدٌ كتابي سطَّره الوحي (آية 6):

(أ) وعد فوري: «من اغتصاب المساكين، من صرخة البائسين الآن أقوم، يقول الرب. أجعل في وُسعِ الذي يُنفَث فيه» (آية 5).

ما أكثر الظلم في الأرض، وما أقسى الإنسان على أخيه الإنسان! لقد قسا فرعون على بني إسرائيل فصرخوا طالبين النجاة، وسمع الله صراخهم ودعا موسى وقال له: «إني قد رأيت مذلّة شعبي الذي في مصر، وسمعت صراخهم من أجل مسخّريهم. إني علمت أوجاعهم.. صراخ بني إسرائيل قد أتى إليّ، ورأيت أيضاً الضيقة التي يضايقهم بها المصريون. فالآن هلمَّ فأرسلك إلى فرعون وتُخرج شعبي بني إسرائيل من مصر» (خر 3: 7–10). وحقّق الرب وعده لهم وأنقذهم.

وفي زمن النبي عاموس كان الظلم الاجتماعي على أشُدّه، فأرسل الله النبي عاموس ينادي بالعدالة الاجتماعية، فوصف الظالمين بقوله: «باعوا البار بالفضة، والبائس لأجل نعلين.. يصدّون سبيل البائسين.. يتمدَّدون على ثياب مرهونة بجانب كل مذبح، ويشربون خمر المغرَّمين في بيت آلهتهم» (عا 2: 6–8). كان الأغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقراً بسبب الطمع والجشع. فصرخ المعذّبون في الأرض، وسمع الله صراخهم فأرسل النبي عاموس ليشجعهم ويعدهم بالإنقاذ. وقد كان.

ولكثرة الظلم يُخيّل للمظلوم أن الله نسيه، فيقول الرب له: «الآن أقوم. أجعل في وُسعِ الذي يُنفَث فيه». والذي ينفث هو الظالم، الذي يفعل مثل ما كان شاول الطرسوسي يفعله بالمسيحيين، فإنه كان ينفث تهدّداً وقتلاً على تلاميذ الرب (أع 9: 1). وسيعطي الرب المظلومين الصارخين إليه وسعاً ورحباً، فلا يبقون في ضيقهم. «ولكن لا يكون ظلام للتي عليها ضيق» (إش 9: 1).

إن أحلك أوقات الليل ظلمة هي التي تسبق الفجر، وعند المساء يبيت البكاء، وفي الصباح ترنُّم. لا بد أن القيامة تتبع الصليب، وبعد ظهر الجمعة يجيء صباح الأحد.

(ب) وعد كتابي: يعتمد المظلوم على وعد الله الصادق دائماً، فإن «كلام الرب كلام نقي، كفضة مصفّاة في بوطةٍ في الأرض، ممحوصةٍ سبع مرات» (آية 6). والبوطة هي الفرن الذي يصهر فيه الصائغ الفضة والذهب، لينقّيهما من الزغل. فكلام الله لا زغل فيه أبداً. والفضة نقية تصفَّت وتكررت سبع مرات (والسبعة عدد الكمال). فوعود الله صادقة كل الصدق، سبع مرات! وما أبعد الفرق بين وعود البشر التي لا يوفونها إما لأنهم لا يريدون أو لأنهم لا يقدرون، وبين مواعيد الله الأمينة الصادقة! قال يشوع لبني إسرائيل: «تعلمون بكل قلوبكم وكل أنفسكم أنه لم تسقط كلمة واحدة من جميع الكلام الصالح الذي تكلم به الرب عنكم. الكل صار لكم. لم تسقط منه كلمة واحدة» (يش 23: 14). وقال سليمان الحكيم: «مبارك الرب الذي أعطى راحةً لشعبه إسرائيل حسب كل ما تكلم به. ولم تسقط كلمة واحدة من كل كلامه الصالح الذي تكلم به عن يد موسى عبده» (1مل 8: 56).. ما أصدق كلام الكتاب المقدس! إنه كلمة الله الصادقة، الخالية من الخطأ والخلط والتحريف والنسخ. إن كانت شريعة مادي وفارس لا تُنسَخ (دا 6: 8) فهل تُنسَخ كلمة الله؟ إن كلام الله مجرّب كل التجريب، جرّبه الخاطئ الذي تاب، فمنحه الله الغفران والتبرير والسلام. وجرّبه المتضايق الصارخ، فنال النجاة والراحة. في كل ضيقنا يتضايق، وملاك حضرته يخلّصنا (إش 63: 9). ويمكنك أن تعتمد على الله وتطمئن، وتقول: «على الرب توكلت».

2 – تحقيق الوعد بالعون: «أنت يا رب تحفظهم. تحرسهم من هذا الجيل إلى الدهر. الأشرار يتمشّون من كل ناحية عند ارتفاع الأرذال بين الناس» (آيتا 7، 8). وعد الله أنه سيقوم ويوسّع للمظلوم المتضايق، والمرنم يقول له: أنت يا رب تحفظ المظلومين الصارخين إليك. كان دانيال في وسط الأسود، وسأله الملك: «يا دانيال، عبد الله الحي، هل إلهك الذي تعبده دائماً قدر على أن ينجّيك من الأسود؟» فأجاب: «أيها الملك عِش إلى الأبد! إلهي أرسل ملاكه وسدّ أفواه الأسود فلم تضرّني لأني وُجدت بريئاً قدامه وقدامك أيضاً أيها الملك. لم أفعل ذنباً» (دا 6: 20–22).

لكل جيل مميزاته وخصائصه، سيحرس الرب شعبه من «هذا الجيل» الفاسد الظالم. ومهما كانت خصائص الذين تعيش بينهم، فإن الله يعدك بالحراسة والحفظ. كان داود يصف عصراً سادت فيه الرذيلة والأرذال، وكان الأشرار فيه يتمشّون بخيلاء ظانين أن المُلك مُلكهم والأرض أرضهم. ولكن الله وعد كل الأتقياء والأمناء بالحراسة. ومهما كانت سمة العصر الذي تحيا فيه، فالله الأزلي الأبدي يؤكد لك العون والخلاص. لقد أسس كنيسته ووعدها أن أبواب الجحيم لن تقوى عليها (مت 16: 18)، ويقول لأعضائها: «أنتم الذين بقوة الله محروسون» (1بط 1: 5).

النصرة النهائية هي لمن يحبون الرب، فأحب الرب بكل قلبك يسود السلام والاطمئنان حياتك.

اَلْمَزْمُورُ الثَّالِثُ عَشَرَ

لإِمَامِ الْمُغَنِّينَ. مَزْمُورٌ لِدَاوُدَ

1إِلَى مَتَى يَا رَبُّ تَنْسَانِي كُلَّ النِّسْيَانِ! إِلَى مَتَى تَحْجُبُ وَجْهَكَ عَنِّي! 2إِلَى مَتَى أَجْعَلُ هُمُوماً فِي نَفْسِي وَحُزْناً فِي قَلْبِي كُلَّ يَوْمٍ! إِلَى مَتَى يَرْتَفِعُ عَدُوِّي عَلَيَّ! 3انْظُرْ وَاسْتَجِبْ لِي يَا رَبُّ إِلَهِي. أَنِرْ عَيْنَيَّ لِئَلاَّ أَنَامَ نَوْمَ الْمَوْتِ، 4لِئَلاَّ يَقُولَ عَدُوِّي: «قَدْ قَوِيتُ عَلَيْهِ». لِئَلاَّ يَهْتِفَ مُضَايِقِيَّ بِأَنِّي تَزَعْزَعْتُ.

5أَمَّا أَنَا فَعَلَى رَحْمَتِكَ تَوَكَّلْتُ. يَبْتَهِجُ قَلْبِي بِخَلاَصِكَ. 6أُغَنِّي لِلرَّبِّ لأَنَّهُ أَحْسَنَ إِلَيَّ.

إلى متى تنساني؟

لا ندري متى كتب داود هذا المزمور. أغلب الظن أنه كتبه لما كان شاول يطارده ليقتله. وهناك مناسبات كثيرة في حياة داود يمكن أن يكون هذا المزمور وصفاً لها. عندما كان يعزف على عوده لشاول، أشرع شاول الرمح مرتين نحوه ليقتله (1صم 18: 1). وداود يتساءل: صنعتُ خيراً، فلماذا ألقى شراً؟ لماذا يريد أن يقتلني مع أنني أحاول أن أعالجه بعَزْفي؟

ولما لم ينفع العنف، استخدم شاول الحيلة، وعرض على داود أن يزوّجه من ابنته، على أن يكون المهر قتل مئة من الأعداء. وكان شاول يرجو أن يقتله الأعداء قبل أن يقتل هو مئة منهم. ولكن داود قتل مائتين ولم يصبه سوء (1صم 18: 27). وحاول شاول أن يقتل داود في بيت الزوجية الجديد، ولكن ميكال كانت أكثر حباً لزوجها منها لطاعة أوامر أبيها، فهرَّبت داود (1صم 19: 16). فأخذ شاول يطارده، حتى وقع شاول في يده، فعفا داود عنه، وعاتبه قائلاً: «وراء من خرج ملك إسرائيل؟ وراء من أنت مُطارد؟ وراء كلب ميت! وراء برغوث واحد؟» (1صم 24: 14).

ولا بد أن داود تعب من كل هذه المطاردات، فكتب مزموره هذا، يشكو إلى الله من الله، ويشكو إلى الله من نفسه، ويشكو إلى الله من أعدائه!

في هذا المزمور نجد:

أولاً – شكوى (آيتا 1، 2)

ثانياً – صلاة (آيتا 3، 4)

ثالثاً – فرح (آيتا 5، 6)

أولاً ـ شكوى

(آيتا 1، 2)

في ضيق داود ومرارة نفسه اشتكى إلى الله وكرر أربع مرات قوله «إلى متى؟». «إلى متى يا رب تنساني كل النسيان؟ إلى متى تحجب وجهك عني؟ إلى متى أجعل هموماً في نفسي وحزناً في قلبي كل يوم؟ إلى متى يرتفع عدوّي عليَّ؟» (آيتا 1، 2).

وأول ما يخطر ببال المؤمن في الضيق أن يتّجه إلى الله.

1 - يشكو من الله إلى الله: «إلى متى يا رب تنساني كل النسيان؟» (آية 1أ). عندما يفكر داود بعقله تفكيراً منطقياً يعرف أن الله لم ينسه أبداً. وكأنه يقول: أعلم أنك لا تنسى، لكن يبدو لي أنك نسيت! كان قد قال: «ارحمني يا رب لأني ضعيف. اشفِني يا رب لأن عظامي قد رجفت، ونفسي قد ارتاعت جداً. وأنت يا رب فحتى متى؟» (مز 6: 2، 3). وقال أيضاً: «أقول لله صخرتي: لماذا نسيتني؟ لماذا أذهب حزيناً من مضايقة العدو؟» (مز 42: 9). وكرر النبي إرميا نفس الشكوى: «لماذا تنسانا إلى الأبد، تتركنا طول الأيام؟» (مرا 5: 20). وقال حبقوق: «حتى متى يا رب أدعو وأنت لا تسمع، أصرخ إليك من الظلم وأنت لا تُخَلِّص؟» (حب 1: 2). هذه صرخة متألمٍ يعاتب الله لأنه يحب الله. ويستمع الله إلى مثل هذه الشكوى بتفهُّم وعطف، فيقول: «قالت صهيون: قد تركني الرب، وسيدي نسيني». ويجيب: «هل تنسى المرأة رضيعها، فلا ترحم ابن بطنها؟ حتى هؤلاء ينسين، وأنا لا أنساك. هوذا على كفيَّ نقشتُك. أسوارك أمامي دائماً» (إش 49: 14-16).

وفي الشكوى من الله يسأل داود: «إلى متى تحجب وجهك عني؟» (آية 1ب). عندما يضيء وجه الله على المؤمن بابتسامة حبه، تشرق الدنيا له. ولكن عندما تعبس الدنيا في وجه المؤمن يُخيَّل إليه أن الله قد حجب وجهه عنه، فيصرخ: «حجبتَ وجهك فصرتُ مرتاعاً» (مز 30: 7). والوجه المحتجب لا يعني الوجه الغافل أو الرافض، لكنه يعني أن المؤمن يحس بالقلق والرعب. ليس العيب في الله، بل في مشاعر المؤمن! ولذلك يسأل كثيرون: «مَن يُرينا خيراً؟ ارفع علينا نور وجهك يا رب» (مز 4: 6). «ليتحنَّن الله علينا ولیبارکنا. ليُنِر بوجهه علينا» (مز 67: 1).

2 - يشكو نفسه لله: «إلى متى أجعل هموماً في نفسي وحزناً في قلبي كل يوم؟» (آية 2أ). إنه حزين بسبب ضعفه وقلقه وهمومه، وكأنه يقول: إلى متى أظل أعول الهم؟ إلى متى يهدّني القلق ويرعبني؟ نفسي عاجزة عن أن تنتصر على الموقف الذي أنا فيه. كل ترتيباتي فشلت، فإلى متى أُعيد تنظيم خططي؟ إلى متى أحاول ولا أوفَّق؟

عندما يفقد المؤمن ثقته في محبة إلهه، وتضيع منه ثقته في نفسه تضيع منه «بهجة خلاصه» (مز 51: 12) ولكنه لا يفقد خلاصه. وبسبب الخطية يعيش في ظلمة روحية، وتضيع منه رؤية وجه الله المحب المطمئِن. ولا يمكن أن يعود إلى الشركة مع الله إلا إن تاب واستعاد علاقته المفقودة بالرب.

3 - يشكو العدو لله: «إلى متى يرتفع عدوّي عليّ؟» (آية 2ب). زار صموئيل النبي بيت يسى البيتلحمي، والد داود، وطلب استدعاء داود من وراء الغنم، ومسحه ملكاً بناءً على توجيه الرب. فكيف يصير مطروداً؟ ومتى تتحقّق مواعيد الرب له؟

تشبه حالة داود المنظر الذي تصفه رؤيا يوحنا: «ولما فتح (الحمل) الختم الخامس رأيتُ تحت المذبح نفوس الذين قُتلوا من أجل كلمة الله ومن أجل الشهادة التي كانت عندهم، وصرخوا بصوت عظيم قائلين: حتى متى أيها السيد القدوس والحق لا تقضي وتنتقم لدمائنا من الساكنين على الأرض؟ فأُعطوا كل واحد ثياباً بيضاً، وقيل لهم أن يستريحوا زماناً يسيراً أيضاً حتى يكمّل العبيد رفقاؤهم وإخوتهم أيضاً العتيدون أن يُقتلوا مثلهم» (رؤ 6: 9-11).

ثانياً ـ صلاة

(آيتا 3، 4)

تساءل داود أربع مرات «إلى متى؟». ثم رفع لله صلاة فيها أربع طلبات تتعلّق بالشكاوى الأربع. وهو يوجّه طلباته قائلاً: «يا رب إلهي» فهناك انتماءٌ لله، وهناك تمسُّكٌ بإله الموعد الذي لا تسقط كلمة من كلامه الصالح.

1 ـ طلب نظرةً: «انظُر» (آية 3أ). وهي طلبةٌ تعالج شكواه «إلى متى يا رب تنساني كل النسيان؟». والحقيقة أن الله لم ينسَه أبداً، لكن الظروف القاسية جعلته يظن هذا الظن الخاطئ. ونظرة الرب إلى المؤمن بعين الرضا لا بد تنقذ المؤمن من المشكلة النفسية التي تعرَّض لها.

2 ـ طلب استجابة: «استجِب لي يا رب إلهي» (آية 3ب). وهي طلبةٌ تعالج شكواه «إلى متى تحجب وجهك عني؟». لم يحجب الله وجهه أبداً عن المؤمن، ولا أدار له ظهره. لكن الدموع في العيون هي التي تحجب جمال الوجه الذي لا يغيب أبداً. «لك قال قلبي: قلتَ اطلبوا وجهي. وجهك يا رب أطلب» (مز 27: 8). فالمرنم لا يطالب بالاستجابة لأنه متطفّل، بل لأن الله قال: «اسألوا تعطوا. اطلبوا تجدوا. اقرعوا يُفتح لكم» (مت 7: 7). وقال المسيح لتلاميذه: «إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي. اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً» (يو 16: 24).

3 ـ طلب استنارةً: «أَنِر عينيَّ لئلا أنام نوم الموت» (آية 3ج). وهي طلبة تعالج شكواه «إلى متى أجعل هموماً في نفسي وحزناً في قلبي كل يوم!». يطلب المرنم من الرب أن يُزيل ظلمة اليأس من عينيه المريضتين اللتين لا تريان رحمة الله بالكفاية.وقد كان هذا اختبار عزرا الكاتب، الذي وصف هذه الاستنارة بقوله: «كلحيظة كانت رأفةٌ من لدن الرب إلهنا ليُبقي لنا نجاة، ويعطينا وتداً في مكان قدسه. لينير إلهنا أعيننا، ويعطينا حياة قليلة في عبوديَّتنا، لأننا عبيدٌ نحن، وفي عبوديتنا لم يتركنا إلهنا، بل بسط علينا رحمة أمام ملوك فارس، ليعطينا حياة» (عز 9: 8، 9). الرب سيُقيمنا. الرب سيُنوّر عيوننا ويعطينا حياةً في نور وجهه.

4 ـ طلب عدم شماتةٍ: «لئلا يقول عدوِّي: قد قويتُ عليه. لئلا يهتف مضايقيَّ بأني تزعزعتُ» (آية 4). وهي طلبةٌ تعالج شكواه «إلى متى يرتفع عدوّي عليَّ؟». هناك عدو يحاول أن يرتفع على المؤمن ويقوَى عليه، ولكن الرب لا يسمح بهذا، لأن فشل المؤمن يجلب العار على اسم إلهه، ويجعل العدو يقول: «ليس له خلاص بإلهه» (مز 3: 2). ثم إن هناك وحدة بين المؤمن والرب، يشبّهها المسيح بعلاقة الغصن بالكرمة (يو 15: 5). الذي يؤذي الغصن يؤذي الكرمة، والذين يضطهدون المؤمنين يقاومون مشيئة الرب الذي يحب المؤمنين. ويجيء المجد للمؤمن لما يمجّد إلهه، ولما يتمجّد الله فيه.

ثالثاً ـ فرح

(آيتا 5، 6)

لا ندري كم من الوقت مضى بين الشكوى والصلاة المرفوعتين إلى الله في مطلع هذا المزمور وبين الفرح الذي عبّر عنه المرنم في نهايته. لكننا نعلم أن الله عيّن لكل شيء تحت السماوات وقتاً (جا 3: 1). وهو يتأنى أحياناً (من وجهة نظرنا) ولكن استجابته سريعة (من وجهة نظره). وقد شرح المسيح هذه الفكرة في قوله: «أفلا ينصف الله مختاريه الصارخين إليه نهاراً وليلاً، وهو متمهّلٌ عليهم؟ (من وجهة نظرهم). أقول لكم: إنه ينصفهم سريعاً. (من جهة التوقيت

الإلهي). ولكن متى جاء ابن الإنسان ألعلّه يجد الإيمان على الأرض؟ (بمعنى: هل يجد مَن ينتظرون توقيته السماوي)» (لو 18: 7، 8).. يتوقّع الإيمان دائماً استجابة الصلاة. وعندما تُستجاب يتقوى الإيمان. فنطلب فتُستجاب. فيتقوى إيماننا أكثر، فنعود نطلب بثقة أكبر وقلوبنا تطفر فرحاً. وهكذا نتقدم من مجد إلى مجد ونختبر كل يوم صلاح الله، فنقول: «أما أنا فعلى رحمتك توكلت. يبتهج قلبي بخلاصك. أغنّي للرب لأنه أحسن إليَّ» (آيتا 5، 6).

يربي البشر أولادهم ليستقلوا عنهم ويقفوا على أقدامهم، لكن الرب يربي أولاده ليعتمدوا عليه أكثر وباستمرار، فلا يستقلون عنه أبداً، لذلك قال المرنم: «أما أنا فعلى رحمتك توكلت» فيجدد ثقته في الرب، فيضيء له طريقه، فيقول: «لأنني عالم بمن آمنت وموقن أنه قادر أن يحفظ وديعتي إلى ذلك اليوم» (2تي 1: 12).

عندما تتعب من نفسك، وعندما تظن أن الله قد نسيك، وعندما ترى الأعداء يحيطون بك ويغلبونك على أمرك، فلا تيأس، لأن الله المحب سيسمع صوتك، ويرى دموعك، وينصرك على متاعبك، فلهذا جاء المسيح إلى أرضنا. ويقول الإعلان الرسمي عن خدمة المسيح: «روح السيد الرب عليَّ، لأن الرب مسحني لأبشّر المساكين، أرسلني لأعصب منكسري القلب، لأنادي للمسبيين بالعتق، وللمأسورين بالإطلاق. لأنادي بسنة مقبولة للرب وبيوم انتقام لإلهنا. لأعزّي كل النائحين. لأعطيهم جمالاً عوضاً عن الرماد، ودهن فرحٍ عوضاً عن النوح، ورداء تسبيح عوضاً عن الروح اليائسة» (إش 61: 1-3).

اَلْمَزْمُورُ الرَّابِعُ عَشَرَ

لإِمَامِ الْمُغَنِّينَ. لِدَاوُدَ

1قَالَ الْجَاهِلُ فِي قَلْبِهِ: «لَيْسَ إِلَهٌ». فَسَدُوا وَرَجِسُوا بِأَفْعَالِهِمْ. لَيْسَ مَنْ يَعْمَلُ صَلاَحاً. 2اَلرَّبُّ مِنَ السَّمَاءِ أَشْرَفَ عَلَى بَنِي الْبَشَرِ لِيَنْظُرَ: هَلْ مِنْ فَاهِمٍ طَالِبِ اللهَ؟ 3اَلْكُلُّ قَدْ زَاغُوا مَعاً فَسَدُوا. لَيْسَ مَنْ يَعْمَلُ صَلاَحاً، لَيْسَ وَلاَ وَاحِدٌ.

4أَلَمْ يَعْلَمْ كُلُّ فَاعِلِي الإِثْمِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ شَعْبِي كَمَا يَأْكُلُونَ الْخُبْزَ، وَالرَّبَّ لَمْ يَدْعُوا؟ 5هُنَاكَ خَافُوا خَوْفاً لأَنَّ اللهَ فِي الْجِيلِ الْبَارِّ. 6رَأْيَ الْمِسْكِينِ نَاقَضْتُمْ لأَنَّ الرَّبَّ مَلْجَأُهُ. 7لَيْتَ مِنْ صِهْيَوْنَ خَلاَصَ إِسْرَائِيلَ. عِنْدَ رَدِّ الرَّبِّ سَبْيَ شَعْبِهِ يَهْتِفُ يَعْقُوبُ وَيَفْرَحُ إِسْرَائِيلُ.

الكل زاغوا

المزموران 14، 53 متشابهان تماماً، ما عدا فرق بسيط في 14: 5، 6 حيث يقول: «هناك خافوا خوفاً في الجيل البار. رأْيَ المسكين ناقضتم، لأن الرب ملجأه» بينما يقول 53: 5 «هناك خافوا خوفاً ولم يكن خوف، لأن الله قد بدّد عظام محاصرك. أخزيتهم لأن الله قد رفضهم». ولعل سبب هذا التغيير يعود إلى رغبة المرنم في مز 53 أن يشير إلى الرعب الذي وقع على ملك أرام (وهي سوريا) حيث لم يكن داعٍ للخوف (2مل 7: 6، 7) أو إلى هزيمة الملك الأشوري سنحاريب هزيمة غير منتظرة، وموت 185 ألف جندي من جنوده في ليلة واحدة (2مل 19: 35، 36). كما أن هناك فرقاً آخر، فمزمور 14 يستعمل اسم الجلالة «يهوه» (المترجمة: الرب) بينما يستعمل مز 53 اسم الجلالة «إلوهيم» (المترجمة: الله).

والمزموران تبشيريان، يتحدثان أولاً عن جهالة الخاطئ في ابتعاده عن الله. ويشرحان خطورة الحياة التي تتجاهل الرب، فالخاطئ جاهل لا يحسن التصرُّف. ومصيره سيء. ثم ينتقل المرنم ليتحدث عن الضمير الذي نوّمه الخاطئ الجاهل، مع أن الرب يحاول أن يوقظه. ثم يختم المرنم المزمورين بحديث عن خلاص المؤمن وهتافه وفرحه. إنه يقدم لنا دعوةً للتوبة والإنقاذ والخلاص، فيقول للبعيد عن الله: أنت لا تعرف مقدار ما تخسر، ولا مقدار الخطر الذي يهددك. لا فائدة في الخطية. إنها مهلكة، ويختم دعوته بالقول إن الخاطئ يخلُص عندما يسكن الرب قلبه، فيحرره من خطاياه ويردّ سبيه، فيهتف ويفرح بخلاصه وحريته. وهذه الدعوة الواضحة تجعل النفس البعيدة تشتاق أن تعود إلى الرب تائبة. فلماذا نحيا في الخطية، بينما العيشة مع الرب هي السعادة الحقيقية؟

في هذين المزمورين نجد:

	مزمور 14	مزمور 53
أولاً – جهالة الخاطىء	(آيات 1-3)	(آيات 1-3)
ثانياً – ضمير الخاطىء	(آيات 4-6)	(آيتا 4، 5)
ثالثاً – سعادة المؤمن	(آية 7)	(آية 6)

أولاً - جهالة الخاطئ

(آيات 114: 1-3 و53: 1-3)

1 - تبدأ جهالة الخاطئ بفكرة خاطئة: «قال الجاهل في قلبه: ليس إله» (آية 1أ). وهو يقول هذا بسلوكه «في قلبه» فيحيا مخالفاً شريعة الله، أو يقوله بسلوكه وفمه معلناً إلحاده. وينكر بعض الفلاسفة وجود الله، ويحاولون إثبات ذلك وإقناع الناس به، مع أن كلمة «فلسفة» تعني «حب الحكمة» في اللغة اليونانية. والمرنم لا يرى عندهم إلا الجهالة، فالخاطئ الذي ينكر وجود الله بفعله أو قوله هو جاهل، يقول إنه يحب الحكمة، وهو في واقع الأمر بعيد عنها، لأن «رأس الحكمة مخافة الرب» (مز 111: 10) و«مخافة الرب رأس المعرفة» (أم 1: 7). وكما أن إنكار وجود النار لا يمنع احتراق من يدخلها، هكذا الشك في وجود الله لا يمنع وقوع دينونته العادلة على من يرفض خلاصه.. ونحن نشكر الله من أجل فلاسفة كثيرين يؤمنون بالله، ويبرهنون ذلك بأساليب منطقية. والجاهل وحده هو الذي ينكر وجود الله، لأن وجود الله حولنا واضح نراه في خليقته، وواضح في معاملاته اليومية معنا. وفوق الكل نراه في سر التقوى «الله ظهر في الجسد» (1تي 3: 16). فمجيء المسيح إلى عالمنا، أكبر برهان على أن الله موجود.

والكلمة العبرية «جاهل» هي «نابال» التي أُطلقت على رجل جاهل ضيّع حياته بسبب حماقته، فقيل عنه: «نابال اسمه والحماقة عنده». أنكر نابال أن داود موجود، وأنكر معرفته به وقال: «من هو داود، ومن هو ابن يسى؟» مع أن داود هو الذي أنقذ شعبه من تهديد جليات الوثني! كما كان نابال يعرف داود جيداً، لأن داود ورجاله كانوا يحرسون قطعان نابال. ولكن الجاهل قال: «أآخذ خبزي.. وأعطيه لقوم لا أعلم من أين هم؟» (1صم 25: 10، 11).. أليس هذا ما يفعله الجاهل الذي ينكر وجود الله، مع أن الله هو الذي منحه الحياة، وهو الذي يعتني به، وهو الذي سيأخذ حياته منه؟!

2 – تزيد جهالة الخاطئ بتصرُّفاته الخاطئة: «فسدوا ورجسوا بأعمالهم. ليس من يعمل صلاحاً» (آية 1ب). خلق الله الإنسان بريئاً، ولكن عصيانه لله أفسد طبيعته الأصلية، وأفسد أعماله اليومية، ودمَّر علاقاته الاجتماعية. نعم فسد البشر، فارتكبوا ما لا يجب، ولم يعملوا ما يجب. وقد وُصفت الحالة قبل الطوفان بالقول: «رأى الرب أن شرَّ الإنسان قد كثُر في الأرض، وأن كل تصوُّر أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. وفسدت الأرض (ساكنوها) أمام الله وامتلأت الأرض ظلماً. ورأى الله الأرض فإذا.. كل بشرٍ قد أفسد طريقه على الأرض» (تك 6: 5، 11، 12).

والرجس هو العمل القبيح والقذارة، والشناعة، والنجاسة. وهي كلمة تشير إلى الأصنام وعبادة الأوثان. لقد خلق الله الإنسان على صورته ليعبده، ولكن الإنسان ضل إلى الوثنية وكل ما يرتبط بها من رجس.

وينكر الجاهل أحياناً وجود الله لأنه ارتكب خطأً يؤرق ضميره، وهو لا يريد أن يصطلح مع الله بالطريقة السليمة، فيتهرَّب بقوله إن الله غير موجود، وينسى أو يتناسى أن الله جهَّز له طريق الفداء والخلاص بكفارة المسيح المصلوب.

3 - خطورة جهالة الخاطئ: «الرب من السماء أشرف على بني البشر، لينظر: هل من فاهمٍ طالب الله؟» (آية 2). يطيل الله أناته على الخاطئ ليتوب، ولكنه في جهالته يظن أن الله لا يحسن ولا يسيء (صف 1: 12)، أو أنه غير موجود على الإطلاق. ولكن «من السماوات نظر الرب. رأى جميع بني البشر. من مكان سُكناه تطلّع إلى جميع سكان الأرض. المصوّر قلوبهم جميعاً، المنتبه إلى كل أعمالهم» (مز 33: 13-15). وفي تعبيرات «إنسانية» تصف التوراة الله أنه «نزل ليرى» أحوال بابل وسدوم (تك 11: 5 و18: 21).

ويشرف الله على «بني البشر» من كل جنسية، لأنه خالقهم جميعاً، وقد أعطى كل شعب نوراً أخلاقياً في الطبيعة وفي الضمير. «لم يترك نفسه بلا شاهد، وهو يفعل خيراً: يعطينا من السماء أمطاراً وأزمنة مثمرة، ويملأ قلوبنا طعاماً وسروراً» (أع 14: 17) «إذ معرفة الله ظاهرة فيهم، لأن الله أظهرها لهم، لأن منذ خَلْق العالم تُرى أمورُه غيرُ المنظورة وقدرتُه السرمدية ولاهوتُه مُدركةً بالمصنوعات، حتى أنهم بلا عذرٍ» (رو 1: 19، 20).

«الرب من السماء أشرف لينظر» لأنه يحب الإنسان ويقول: «لذّاتي مع بني آدم» (أم 8: 31).

إنه الراعي الصالح الذي يفتش عن الواحد الضال إلى أن يجده، مهما كلفه هذا التفتيش. إنه لا يريد هلاك الخاطئ بل توبته. وهو ينتظر من البشر أن يتصرّفوا بقدر ما عندهم من نور. يفتش الله في كل أمة ليرى هل من «فاهم» لنفسه وضعفه وخطيته وواجبه ومصيره، وهل من «فاهم» محبة الله وتفتيشه عن الخاطئ ليفديه. وكل من ينكر وجود الله ينكر «إلوهيم» إله العهد، ضابط العالم كله، وينكر حق الله، لأن الخطية ثورة ضد الله وضد شرائعه. ولذلك يعترف داود: «إليك وحدك أخطأت، والشر قدام عينيك صنعت» (مز 51: 4).

4 – عمومية جهالة البشر: «الكل قد زاغوا معاً، فسدوا. ليس من يعمل صلاحاً، ليس ولا واحد» (آية 3). الإنسان فاسد بطبيعته، وفاسد بعمله. منذ سقوط أبوينا الأوّلين في جنة عدن ونحن نرى الإنسان يقتل أخاه، لا بسبب الجوع أو الاحتياج، ولا بسبب أزمة المساكن، لكن لأنه شرير بطبيعته. وفساد الجنس البشري فساد مطلق، فالإنسان بولادته الطبيعية لا يقدر أن يُرضي الله، لا بالعمل ولا بالنيّة. أساس الشجرة فاسد فهي تعطي ثمراً فاسداً. ينبوع الماء أصلاً مر ويعطي ماءً مراً. ومع أن الله يرعى البشر حتى يقولوا: «لا يعوزني شيء» إلا أنهم يضلون ويحتاجون إلى من يرد نفوسهم إلى سُبُل البر، لا لخير فيهم، إنما «من أجل اسمه» (مز 23: 1، 3).

وقد اقتبس الرسول بولس هذه الآيات في أصحاح 3 من رسالته إلى رومية ليُبرهن فساد البشر جميعاً، وكيف أنهم واقعون تحت حكم الهلاك الأبدي، ثم ليعلن أن الله دبَّر النجاة بواسطة المسيح لهؤلاء الجهّال الذين أضّروا بأنفسهم «إذ الجميع أخطأوا.. متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح، الذي قدّمه الله كفارة» (رو 3: 23، 24). «كلنا كغنم ضللنا. مِلنا كل واحد إلى طريقه، والرب وضع عليه (المسيح) إثم جميعنا» (إش 53: 6).

ثانياً - ضمير الخاطئ

(آيات 14: 4-6 و53: 4، 5)

1 - ضمير نائم: «ألم يعلم كل فاعلي الإثم الذين يأكلون شعبي كما يأكلون الخبز، والرب لم يدعوا؟» (آية 4). هذه خطية الضمير النائم الذي يعلم أصحابه أن الله هو القاضي العادل، الذي لا بد أن يقتصّ من الظالم، ومع ذلك يفعلون الإثم ويأكلون المؤمنين الذين يخافون الله، وكأنهم يأكلون الخبز، دون أن يتأسّفوا أو تتحرك ضمائرهم (انظر ميخا 3: 3). جهلوا أو تناسوا وتجاهلوا! لم يوفِّقوا بين تصرّفهم ومعرفتهم! ألم يعلموا؟ في جهل فعلوا الإثم، وفي جهل أكلوا شعب الرب كأمر طبيعي واجب، ولم يكلموا الرب ولا دعوه في حياتهم!

غريب أمرهم، نتعجب منهم كما تعجب المسيح من عدم إيمان أهل الناصرة به، فتركهم وصار يطوف القرى المحيطة يعلّم (مر 6: 6).

«والرب لم يدعوا». تصرّفوا دون أن يطلبوا عون الرب وبركته على ما يفعلون، ولا استشاروه في ما سيقومون به. ولو أنهم دعوه لهداهم إلى سبُل البر. وهكذا جانب الصواب تصرفهم.

أعمال فاعلي الإثم ضد العقل والمنطق الذي يعلّم أن أجرة الخطية هي موت. وهي ضد التاريخ والاختبار الذي ينادي بأن ما يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضاً. وليس فعل الإثم غلطة طفل، لكنها جريمة شخصٍ ناضجٍ يقول لله: «ابعُد عنا وبمعرفة طرقك لا نُسَر» (أي 21: 14 و22: 17).

2 - ضمير يوجد ما يوقظه: «هناك خافوا خوفاً لأن الله في الجيل البار» (آية 5). يرى فاعلو الإثم دائماً العقاب الذي يحلّ بهم، والحماية التي يمنحها الله للمؤمنين، لأن الله دوماً يميِّز تقيَّه (مز 4: 3). «هناك» حيث أكلوا شعبه. «هناك» حيث ظنوا أنهم «يأكلون الخبز». «هناك» حيث تناسوا الرب، جاءهم الخوف الرهيب الذي أفزعهم، وهم يرون الله يبادر بحماية «الجيل البار». وكلما قارن الخاطئ رعبه وقلقه بالسلام الذي يعيش فيه المؤمن يخاف أكثر، لأنه يرى النتيجة ولا يرى السبب، ويرى العون دون أن يرى المعين، ويرى يداً تكتب على الحائط ولا يرى صاحبها!.. عندما ماتت سارة زوجة خليل الله إبراهيم، جاء إلى الحثيين وقال: «أنا غريب ونزيل عندكم. أعطوني مُلكَ قبر معكم لأدفن ميتي». فأجابوه: «أنت رئيسٌ من الله بيننا» (تك 23: 4–6) لأنهم رأوا ولمسوا أن الله معه.. وجاء أبيمالك ملك جرار وفيكول رئيس جيشه إلى إسحق ليعقدا صلحاً معه، بالرغم من أنهما قاوماه وطرداه من جرار، وقالا له: «رأينا أن الرب كان معك، فقُلنا: ليكن بيننا حلفٌ بيننا وبينك ونقطع معك عهداً» (تك 26: 28).

والله دائماً يوقظ ضمير الخاطئ بأن يُريه حُسن التعامل السماوي مع الأتقياء، وذلك لهدفين: أن يشجع الأتقياء، وأن يتوِّب الخطاة، فهو الله محبة.. ويقول مزمور 14: 6 «رأْي المسكين ناقضتم لأن الرب ملجأه». وهذه كلمات توقظ ضمير الأثيم الذي يناقض رأى التقي المسكين بالروح. ويبرهن الرب صواب رأي التقي لأنه مبنيّ على ما أعلنه في شريعته. وهذا البرهان السماوي يجعل الأثيم يراجع نفسه وأفكاره وآراءه، ويرجع عن طريق إثمه، فيحيا.

ويقول مزمور 53: 5 «هناك خافوا خوفاً ولم يكن خوف، لأن الله قد بدّد عظام مُحاصِرك». كان العدو قوياً متأكداً من النصر، وكان الأتقياء قلّة قليلة، فقلَبَ الرب الموازين البشرية، وأعلن العدالة الإلهية، فأهلك المحاصِرين، ونجّى المحاصَرين!

ثالثاً ـ سعادة المؤمن

(آية 14: 7 و53: 6)

«ليت من صهيون خلاص إسرائيل. عند ردّ الرب سبيّ شعبه يهتف يعقوب ويفرح إسرائيل». صهيون هو الجبل الذي أُقيم عليه الهيكل، فالخلاص يكون في عبادة الرب واتِّباعه. يقول «ليت» لأن كثيرين من البشر لا يخلصون لأنهم لا يتعبَّدون! ومن صهيون جاء خلاص المسيح وتحققت النبوة: «ويأتي الفادي إلى صهيون، وإلى التائبين عن المعصية» (إش 59: 20). وفي الآية الأخيرة من مزموره يذكر المرنم أمرين يفعلهما الله لشعبه: إنه يخلّصهم، ويردّ سبيهم. **1 ـ الله يخلص شعبه:** «ليت من صهيون خلاص إسرائيل» (آية 7أ). صهيون هي مكان وجود تابوت العهد الذي يرمز إلى أمرين على الأقل:

(أ) الله موجود وسط شعبه:

كانت خيمة الاجتماع، وتابوت العهد بها، في وسط معسكر بني إسرائيل. وكانت كل الأسباط ترى تابوت العهد في الوسط. فإن أردت خلاصاً لبيتك، فليكن الرب وسط البيت. وإن أردت خلاصاً من مشكلة فليكن الرب سيد حياتك ومالك الزمام كله.

(ب) الله أمين في العهد لشعبه:

دخل الله في عهد معنا قبل أن ندخل نحن في عهد معه. وهو عهد مختومٌ بالدم. وقد أدخلنا المسيح في عهد جديد يسمّيه «العهد الجديد بدمي الذي يُسفَك عنكم» (لو 22: 20). فدعونا ندخل في هذا العهد مع الله. وعندما يرى الذين حولنا أننا دخلنا مع الرب في هذا العهد بأمانة، وأن الله موجود في قلبنا وفي وسطنا، يتوبون، لأنهم يرون مقدار الخسارة التي تحل بهم نتيجة بُعدهم عن الله. ويتحقّق معنا القول: «لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السماوات» (مت 5: 16). وكلمة «الحسنة» في الأصل اليوناني معناها: حسنة جذابة.

2 ـ الله يردّ سبي شعبه: «عند ردِّ الرب سبي شعبه يهتف يعقوب ويفرح إسرائيل» (آية 7ب). ردُّ السبي معناه إعادة النجاح الذي ضاع، كما قيل: «ردَّ الرب سبي أيوب» (أي 42: 10) فدعونا نطلب من الله أن يرد إلينا ما ضيَّعناه بضعفنا. إن كنت تعيش مع الرب حياة فرح وسلام، ولكنهما ضاعا منك بسبب القلق أو نقص الصلاة أو نقص الأمانة لله، فصلِّ: «رُدَّ لي بهجة خلاصك» (مز 51: 12). فيحقق الرب لك قوله: «وأردُّ سبي شعبي إسرائيل، فيبنون مدناً خربة ويسكنون ويغرسون كروماً ويشربون خمرها، ويصنعون جنات ويأكلون أثمارها، وأغرسهم في أرضهم، ولن يُقلعوا بعدُ مِن أرضهم التي أعطيتُهم» (عا 9: 14، 15).

ليت الرب يرد لنا قوَّتنا الروحية، ومحبتنا الأولى، لنقف على أقدامنا قريبين منه، نحبه من كل القلب والنفس والفكر. عندها يظهر أن الله في الجيل البار، فنهتف ونفرح لأن خلاصنا هو مِن عند إلهنا.

اَلْمَزْمُورُ الْخَامِسُ عَشَرَ

مَزْمُورٌ لِدَاوُدَ

1يَا رَبُّ، مَنْ يَنْزِلُ فِي مَسْكَنِكَ؟ مَنْ يَسْكُنُ فِي جَبَلِ قُدْسِكَ؟ 2السَّالِكُ بِالْكَمَالِ، وَالْعَامِلُ الْحَقَّ، وَالْمُتَكَلِّمُ بِالصِّدْقِ فِي قَلْبِهِ، 3الَّذِي لاَ يَشِي بِلِسَانِهِ، وَلاَ يَصْنَعُ شَرّاً بِصَاحِبِهِ، وَلاَ يَحْمِلُ تَعْيِيراً عَلَى قَرِيبِهِ. 4وَالرَّذِيلُ مُحْتَقَرٌ فِي عَيْنَيْهِ، وَيُكْرِمُ خَائِفِي الرَّبِّ. يَحْلِفُ لِلضَّرَرِ وَلاَ يُغَيِّرُ. 5فِضَّتُهُ لاَ يُعْطِيهَا بِالرِّبَا، وَلاَ يَأْخُذُ الرَّشْوَةَ عَلَى الْبَرِيءِ. الَّذِي يَصْنَعُ هَذَا لاَ يَتَزَعْزَعُ إِلَى الدَّهْرِ.

من ينزل في مسكنك؟

كتب داود هذا المزمور في نفس المناسبة التي كُتب فيها مزمور 24 وهي نقل تابوت العهد إلى الخيمة التي جهّزها داود له على جبل صهيون (2صم 6: 17) فتقدَّس الجبل وسُمِّي «جبل قدس الله». ولا بد أن نتساءل: ما هي صفات الناس الذين سيسكن الله وسطهم؟

قال الله: «إني أنا الرب إلهكم فتتقدّسون وتكونون قديسين، لأني أنا قدوس» (لا 11: 44). إذاً قداسة الحياة هي شرط الإقامة في جبل الله، وهي تتَّضح في الحياة السلوكية والعملية. «قد أخبرك أيها الإنسان ما هو صالح، وماذا يطلبه منك الرب: إلا أن تصنع الحق، وتحب الرحمة، وتسلك متواضعاً مع إلهك» (مي 6: 8). وهذا أحد المزامير التي تتنبأ بصعود المسيح، إذ دخل بعد صعوده إلى مجده الأزلي، بعد أن أكمل العمل الذي تجسّد ليقوم به، وقال: «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته. والآن مجِّدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم» (يو 17: 4، 5).

في هذا المزمور نجد:

أولاً – سؤال (آية 1)

ثانياً – إجابة السؤال (آيات 2–5أ، ب)

ثالثاً – خاتمة المزمور (آية 5ج)

أولاً ـ سؤال

(آية 1)

«يا رب من ينزل في مسكنك؟ من يسكن في جبل قدسك؟». و«نزول» الإنسان في مكان ما يعني أنه ينزل ضيفاً لبعض الوقت. أما «السكن» فله صفة الدوام، لأنه إقامة صاحب البيت. ويبدأ الإنسان حياته الروحية بأن ينزل ضيفاً في مسكن الرب، ولكنه يحب الرب بكل قلبه، فيطلب أن يقيم دائماً. ولكن هل يقدر إنسان أن ينزل في مسكن الله القدوس وهو خاطئ؟ ألم يصرخ إشعياء حين رأى الرب في هيكله: «ويل لي، إني هلكت!» (إش 6: 5)؟ ألم يطلب بطرس من المسيح أن يخرج من سفينته بعد أن رأى جلال عمله لأنه رجل خاطئ؟ (لو 5: 8).

والإجابة: إنه يقدر إن كان الله يُنعِم عليه بالتبني، فيصبح من أهل بيت الله ومسكناً لله (يو 1: 12 وأف 2: 19، 22). وهذا ما قاله إشعياء: «ارتعَبَ في صهيون الخطاةُ. أخذت الرَّعدة المنافقين. مَن مِنّا يسكن في نار آكلة؟ مَن مِنّا يسكن في وقائد أبدية؟ السالك بالحق، والمتكلم بالاستقامة، الرافِل مكسب المظالِم، النافض يديه من قبض الرشوة، الذي يسدُّ أذنيه عن سمع الدماء، ويغمض عينيه عن النظر إلى الشر. هو في الأعالي يسكن. حصون الصخور ملجأه. يُعطَى خبزُه، ومياهه مأمونة. الملك ببهائه تنظر عينك» (إش 33: 14-17).

وكل الذين قبلوا المسيح مخلّصاً، وذاقوا ونظروا ما أطيب الرب (مز 34: 8) واختبروا حلاوة النزول في مسكنه يطلبون الإقامة في جبل قدسه، ليتعمّقوا أكثر في التعرُّف عليه، لأن كل يوم يمضي من حياتنا يحبّبنا في الرب أكثر، فندخل إلى العمق لنتمتع أكثر بالعيشة معه، ونقول: «أسكن في بيت الرب إلى مدى الأيام» (مز 23: 6). والسؤال «من يسكن؟» يجعلنا نتشوَّق أن نسكن عند الرب، وأن نكون ممَّن يحبّون أن يَمْثلوا في محضره دائماً.

الشخص الذي يبدأ ضيفاً عند الله، ويتقدم روحياً، يسكن في حضرة الله، فيقدر أن يقول مع إيليا: «حيٌّ هو الرب الذي وقفتُ أمامه» ثم يقول: «حي هو الرب الذي أنا واقف أمامه» باستمرار (1مل 17: 1 و18: 15). ويُذكّرنا استمرار الوقوف في محضر الرب بحنّة النبيّة التي ظلت أربعاً وثمانين سنة عابدة في الهيكل ليلاً ونهاراً بصلوات وأصوام (لو 2: 37).

والذي ينزل ثم يسكن في جبل قدس الرب يتمتع بوعد المسيح: «الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبّني، والذي يحبّني يحبّه أبي، وأنا أحبه، وأُظهر له ذاتي.. إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي، وإليه نأتي، وعنده نصنع منزلاً» (يو 14: 21، 23).والذي يقيم ويسكن عند الرب ينعم بالرعاية، لأن رب البيت محبٌّ وغني وكريم، عنده يقول الضيف: «الرب راعيَّ فلا يعوزني شيء.. ترتب قدامي مائدة تجاه مضايقيَّ» (مز 23: 1، 5). وعنده يتمتع بالحماية لأن «الساكن في ستر العلي في ظل القدير يبيت» (مز 91: 1). وعنده يتمتع برداء البر وثوب الخلاص، إذ يحضر وليمة الملك السماوي (إش 61: 10 ومت 22: 11).

ثانياً ـ إجابة السؤال

(آيات 2-5ب)

يقدّم المرنم ثمانية أوصاف لمن يسكن في جبل الله المقدس، مارسها صاحبها بانتظام حتى صارت منهجه اليومي. ويسجّلها المرنم كأفعال، هي ثمر عمل الروح القدس داخل ساكن بيت الرب:

1 ـ السلوك الصالح: «السالك بالكمال» (آية 2أ). السلوك أهم من الكلام، لأنه يعلن الإيمان بالعمل الصالح، وهذا هو الإيمان العامل، بخلاف إيمان الكلام الميت الخالي من العمل. وكلمة «الكمال» تصف الذبيحة التي لا عيب فيها. وفي حالة إطلاق هذا الوصف على الإنسان تعني أنه أمين وبلا لوم. وهي تصف التعبُّد المقبول لله والتصرُّف المخلص الشريف مع الناس. والكامل هو التام، كامل الاستدارة، ليس فيه «فعص». وهذا ما طلبه الله من إبراهيم: «سر أمامي وكن كاملاً» (تك 17: 1). وطلبه من شعبه: «تكون كاملاً لدى الرب إلهك» (تث 18: 13). وهو طلب المسيح: «كونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل» (مت 5: 48).

وليس المقصود هنا الكمال المطلق، فإن هذا هو كمال الرب وحده. لكنه كمال القصد والنية، إذ ينوي المؤمن بكل قلبه أن يعيش للرب ويسلك بالحق.

2 - **السلوك بالحق:** «العامل الحق» (آية 2ب). والحق هو الصدق، والبر، والعدل. والإنسان العامل بالحق هو الصادق مع نفسه، الذي يدرك ضعفه وخطاياه، ويأتي فوراً إلى الله صارخاً: «اللهم ارحمني أنا الخاطئ» (لو 18: 13) وبهذا يأخذ نفسه العطشانة إلى الله لترتوي، ويقود نفسه المحطمة إلى حيث تجد الشفاء الإلهي، مصلّياً: «قلباً نقياً اخلق فيَّ يا الله، وروحاً مستقيماً جدِّد في داخلي» (مز 51: 10).

وعندما نحب نفوسنا نخلّصها بأن نأخذها إلى دم المسيح الذي يطهرنا من كل خطية، فنقدر أن نحب غيرنا، لأن الوصية تقول: «تحب قريبك كنفسك» (مر 12: 31).. والعامل بالحق هو الذي يمارس إيمانه الكنسي في الشارع، ويسلك بالحق داخل بيت الرب وخارجه، لأن «من يفعل البر فهو بار كما أن ذاك بار» (1يو 3: 7).

3 - الكلام بالصدق: «المتكلم بالصدق في قلبه» (آية 2ج). و«من فضلة القلب يتكلم الفم» (مت 12: 34). هو صادق القلب، فيخرج الصدق على لسانه. والعبارة المشهورة من المسيح هي: «الحق الحق أقول لك» (يو 3: 3)، كما قال: «أنا هو الحق» (يو 14: 6)، ولذلك يطلب منا أن نتكلم بالحق والصدق في قلوبنا. وقال: «تعرفون الحق والحق يحرركم» (يو 8: 32) وعندما يحررنا المسيح من حياتنا القديمة يغيّرها ويعطينا حياة جديدة، فيكون الصدق في قلوبنا، وتنطق به ألسنتنا. وما أكثر الكذب من حولنا. هناك الكلمات ذات المعنى المزدوج، وهناك الكذب الأبيض، وهناك نصف الحق، وهناك النفاق. وإبليس هو الكذاب وأبو الكذاب (يو 8: 44). قال أحد المؤمنين: عندما تتكلم اسأل نفسك ثلاثة أسئلة: هل ما أقوله حق؟.. وإن كان حقاً فهل من اللازم أن أقوله؟.. وإن كان صحيحاً ولازماً، فكيف أقدّمه بطريقة رقيقة تفيد الآخرين؟

4 - صاحب اللسان الحلو (آية 3): ويتضح ذلك من ثلاثة أمور:

(أ) «**لا يشي بلسانه**»: (آية 3أ). والوشاية هي نقل خبر للضرر والإيقاع بالناس، وإشعال نار الخصام، لذلك قال الله: «لا تسْعَ في الوشاية بين شعبك» (لا 19: 16). ويصف آساف الواشي بقوله: «أطلقتَ فمك بالشر، ولسانك يختَرع غشاً. تجلس تتكلم على أخيك. لابن أمك تضع معثرة» (مز 50: 19، 20). والذي يسكن في جبل الله هو صاحب اللسان الحلو الذي لا ينطق بالشر على أحد، ولا يوقع ضرراً بأن ينقل للناس أخباراً كاذبة، أو لا ضرورة لروايتها، لأن «المحبة تستر كل الذنوب» (أم 10: 12).

(ب) «**لا يصنع شراً بصاحبه**»: (آية 3ب). هناك شرور كثيرة تنشأ عن سوء استخدام اللسان: «اللسان عضو صغير ويفتخر متعظماً. هوذا نار قليلة، أي وقود تحرق! فاللسان نار، عالم الإثم. هكذا جُعل في أعضائنا اللسان الذي يدنّس الجسم كله، ويضرِم دائرة الكون، ويُضرَم من جهنم.. من الفم الواحد تخرج بركة ولعنة» (يع 3: 5، 6، 10).

(ج) «**لا يحمل تعييراً على قريبه**»: (آية 3ج). والتعيير هو السخرية من شخص لضعف فيه، وهو مؤلم جداً فوق ما يستطيع القريب أن يحتمل. قال فيه المرنم: «العار قد كسر قلبي فمرضتُ. انتظرتُ رقَّة فلم تكن، ومعزّين فلم أجد» (مز 69: 20). حسناً قيل إن الذي يعيِّر قريبه يحمل شيطاناً في لسانه، والذي يضحك للسخرية يحمل شيطاناً في أذنه!

5 - لا يصادق الرذيل: «الرذيل محتقر في عينيه» (آية 4أ). فالذي يسكن الجبل المقدس لا يصادق الذي يحب الرذيلة ويرتكبها مهما كان وضع ذلك الرذيل الاجتماعي عظيماً، ولا يجعله نموذجاً وقدوة له، ولا يغمض عينيه عن الخطأ الذي يصدر عنه.

وساكن الجبل المقدس لا يحتقر الرذيل ذاته، لكنه يحتقر الرذيلة فيه، لأن الله يحب الخاطئ مع أنه يكره الخطية. فإذا احتقر التقي رذالة الرذيل يتمم القول النبوي: «لا يُدعى اللئيم بعد كريماً، ولا الماكر يُقال له نبيل» (إش 32: 5) لأن كل واحد سينال اللقب الذي يستحقه.

6 - يحترم الأتقياء: «يكرم خائفي الرب» (آية 4ب). «لأن الكريم بالكرائم يتآمر، وهو بالكرائم يقوم» (إش 32: 8). وساكن الجبل المقدس الذي يحتقر الرذيل يكرم خائفي الرب، لأن الرب جعلهم أواني للكرامة (رو 9: 21، 23). وقال: «أُكرم الذين يكرمونني، والذين يحتقرونني يصغرون» (1صم 2: 30). وهو يكرمهم لأنهم ينتمون إلى نفس العائلة الروحية، ولأنهم مثله «أهل بيت الله» (أف 2: 19). وهو يطيع الوصية: «مقدّمين بعضكم بعضاً في الكرامة» (رو 12: 10). ويحقّق قول المسيح: «إن كان أحدٌ يخدمني يكرمه الآب» (يو 12: 26). فليحافظ كل مؤمن على كرامة إخوته، وليكن شعارنا: «القديسون الذين في الأرض والأفاضل، كل مسرتي بهم» (مز 16: 3).

7 - صادق الوعود: «يحلف للضرر ولا يغيِّر» (آية 4ج). فهو ينفّذ وعوده ونذوره إذا وعد ونذر، حتى لو كان هذا يؤذيه، لأنه أمين لكلمته ووعوده، فقد نطق بهما أمام الرب، والتزم بتنفيذهما. وقد أمر الله شعبه ألاّ ينكثوا بالوعود (لا 5: 4 و27: 10) والمرنم يطيع هذا الأمر.

وساكن الجبل المقدس يتمثَّل بالله كابنٍ حبيب له (أف 5: 1). ولما كان إلهنا دوماً يحقّق وعوده لنا، فعلينا أن نلتزم بأمانة الكلمة، فما أكثر ما نعِد وننذر في بدء كل سنة جديدة، أو عندما نحتفل بعيد ميلادنا، أو عندما نمرّ بمأزق، أو بعد حضور مؤتمر أو نهضة روحية. فلنكن أمناء لوعودنا حتى لو كلّفتنا الكثير، لنكون مستحقين أن نسكن في جبل قدسه. ومثالنا في ذلك هو المسيح الذي قال عند دخوله إلى العالم: «ذبيحة وقرباناً لم تُرِد، ولكن هيّأت لي جسداً. بمحرقات وذبائح للخطية لم تُسرَّ، ثم قلتُ: هئنذا أجيء. في درج الكتاب مكتوب عني، لأفعل مشيئتك يا أَلله» (عب 10: 5-7). لقد وعد وأوفى بالرغم من التضحية الباهظة التي احتملها لأجلنا.

8 - يستخدم المال بطريقة صالحة (آية 5): ويتضح ذلك من أمرين:

(ا) «فضته لا يعطيها بالربا»: (آية 5أ). والربا المنهي عنه هو الذي يُحدِث الضرر، وهذا ما اتفق نحميا مع الشعب عليه (نح 5: 1-13). وكانت شريعة موسى تسمح بإعطاء سُلفة للأجنبي بفوائد، أما اليهودي فيجب أن يعطي أخاه اليهودي بغير فوائد، فقالت: «لا تقرض أخاك بربا، ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء ما مما يُقرَض بربا. للأجنبي تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تقرض بربا، لكي يباركك الرب إلهك» (تث 23: 19). وواضح أن الشريعة اليهودية تأمر بالرحمة بين اليهود فقط، وليس للأمم، بينما تعلّم المسيحية بأخوية كل البشر، فقد خلق الله من دمٍ واحد كل أمة من الناس على كل وجه الأرض (أع 17: 26) وعلّمنا أن نصلي: «أبانا الذي في السماوات» (مت 6: 9).

ومنع الربا والفوائد الفاحشة سببه أن المدين يكون أضعف من الدائن، فالمدين يستدين ليسدَّ احتياجاً، لذلك يجب مساعدته. أما في وقتنا الحاضر فإن الضعيف هو الذي يودع فضته في البنوك لتستثمرها له، لأنه يعجز عن استثمارها بنفسه. فالمدين في هذه الحالة (الذي هو البنك) هو القوي، والدائن (المودع) هو الضعيف. فلا ظلم ولا ضرر أن يدفع البنك القوي فوائد للدائن الضعيف!

ويصوّر العهد الجديد الاستثمار بصورة تختلف عن تصوير شريعة موسى. فروى المسيح مثَل صاحب المال الذي أعطى عبيده وزنات ليشتغلوا بها. ولما لم يشتغل أحدهم قال صاحب المال له: «كان ينبغي أن تضع فضتي عند الصيارفة (البنوك). فعند مجيئي كنتُ آخذ الذي لي مع ربا (فوائد)» (مت 25: 27). لأن الصيارفة يستثمرون المال ويشاركون المودع في الفوائد، وليس في المنفعة المتبادلة خطأ. ويعلّمنا المسيح أن الاستثمار واجب، ولكن الفائدة المجحفة والاستغلال مرفوضان.

(ب) «لا يأخذ الرشوة على البريء»: (آية 5ب). الرشوة تعوّج القضاء. عندما يدفع إنسان رشوة ليأخذ ما ليس من حقه يرتكب جريمة، لأنه يكون لصاً يأخذ ما ليس له. أما الذي يأخذ الرشوة فهو لص دائماً، لأنه يساعد لصاً آخر ليأخذ ما ليس من حقه، والمعطي في هذه الحالة يعطي ما لا يمتلكه. أما المجتمعات التي تفشّى فيها الفساد، حيث لا يستطيع صاحب الحق أن يحصل على حقه إلا إذا دفع رشوة، فإن معطي الرشوة لا يرى ذلك خطية، بل يعتبر الرشوة «نفقات عمل». ولكننا نعتبره ضعيف إيمان، لأنه لم يصبر وينتظر الرب ليعطيه حقَّه. أما آخذ الرشوة فهو لص، لأنه تقاضى الرشوة مقابل إعطاء الناس حقوقهم المشروعة.

وهناك من يرفضون أن يدفعوا رشوة، لأنهم يدركون أن الله سيعطيهم حقهم، فينتظرون الرب. هؤلاء أقوياء إيمان، ولا بد أن يكرم الله إيمانهم ويقول لهم ما قاله للأعميين: «حسب إيمانكما ليكن لكما» (مت 9: 29).

هذه الأوصاف الثمانية تصوّر لنا شخصية كاملة، صاحبة إيمان عامل بالمحبة، تقوم بكل المطلوب في أصغر الأمور وأكبرها على السواء، وبأمانة، لأن محبة الله قد انسكبت في القلب (رو 5: 5).

ثالثاً ـ خاتمة المزمور

(آية 5ج)

«الذي يصنع هذا، لا يتزعزع إلى الدهر». فالذي يتَّصف بهذه الصفات يتواجد في محضر الله، تحت ظل الحماية الإلهية التي تضمن له النجاح، فيقول: «جعلتُ الرب أمامي في كل حين، لأنه عن يميني فلا أتزعزع» (مز 16: 8).

ويواجهنا سؤال: كيف يمكن أن نمارس هذه الصفات في حياة كل يوم؟ والإجابة: نمارسها عندما نحصل على برِّ المسيح فنطمئن أننا ثابتون في الرب، فيسيطر الروح القدس علينا ويعطينا ثمره، وهو: «محبة، فرح، سلام، طول أناة، لطف، صلاح، إيمان، وداعة، تعفّف» (غل 5: 22، 23). ويحاول البعض أن يُجْروا إصلاحات في حياتهم ويجمّلوها، لكن الإصلاح لا ينفع شيئاً. التغيير هو اللازم، فإن ترقيع الثوب القديم بقماش جديد لا يستمر (مر 2: 21). الحاجة هي إلى ثوب جديد. ويتم ذلك التجديد في حياتنا بقوة الروح القدس، لأنه «إن كان أحدٌ في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديداً» (2كو 5: 17). فاطلب التغيير من الله.

ويواجهنا سؤال آخر: ألا يبدو من هذا المزمور أن العمل هو وسيلة الخلاص؟ والإجابة: إن صاحب المزمور يتحدث عن الساكن في جبل الرب المقدس، وقد أدّى كل مطالب شريعة موسى من ذبائح. فهو يعلم أنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة، وأنه بالكفارة وحدها استطاع أن يدخل مسكن الرب. فالبداية بالفداء، ويجيء العمل الصالح ثمراً للفداء بالدم. ولا بد لمن ينال التبرير بالفداء أن يُظهِر ثمر ذلك بحياة التقوى، فإننا نتبرر أمام الله بالإيمان بما عمله المسيح عنا على الصليب،

كما تبرر إبراهيم الخليل (تك 15: 6). ونحن نتبرر أمام الناس بالعمل الصالح، كما تبرر إبراهيم أيضاً (تك 22 ويـــع 2: 21-23). العمل الصالح يتبع الإيمان، فيكون إيماننا عاملاً بالمحبة.

أما الذين يرفضون الفداء بالدم، ويفتخرون بأعمالهم الصالحة كوسيلة لخلاص نفوسهم، فلا يمـــكن أن يُرضوا الله، لأنهم يستبعدون الطريق الذي رسمه لنا للخلاص «لأنه بأعمال الناموس كل ذي جسد لا يتبرر أمامه.. متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح» (رو 3: 20، 24).